ليل مسافرة

ليل مسافرة

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الكتاب: ليل مسافرة

اسم المؤلف: أحمد عبد المحسن محمد حمدان

التدقيق اللغوي: د.ياسر عوض

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٥٢٢٥ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٣٧٢-٩-٨

مسار للنشر و التوزيع

Massar publishing & Distribution

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ليل مسافرة

أحمد عبد المحسن محمد حمدان

مسار
للنشر والتوزيع
Masar publishing & Distribution

إهداء

إلى كل محبي وعاشقي الأدب وإلى كل محبي لغة الضاد وإلى كل من ساهم فى إخراج هذا العمل للنور.

إلى أخي الكبير وأستاذي الذى علمني حب الأدب ولغة الضاد..

إلى عائلتي وابنائي وأصدقائي..

إلى كل من مر فى حياتي فترك أثرًا جميلًا وذكريات لا تُنسى..

إلى السيده التي كانت سندًا وعونًا لى طوال حياتي وكانت ملهمتي وبلسم لجراحاتي..

إهدي هذا العمل.

ليل مسافرة

تنتظر القطار على رصيف المحطة القديم في ليلة مظلمة وقد أصم صوتُ الرياح الآذان، ويذوب الصقيع الأجسام.

فتاة جالسة في مقهى المحطة القديم المتهالك تختلس النظرات لطريق قدوم القطار، عسى أن يأتي ليحتضنها من برد قارس، وينير لها الظلمات في ليل بهيم بلا قمر، ويرحمها من ضوء المحطة الخافت، وحتى تُرحم من تسكُّع الساعات لقدوم النهار وأن تبعث الشمس ضوءها لتشعر الأجساد ولو ببعض الدفء، ولكن هيهات لقدوم القطار قبل سويعات ليست بالقليلة حتى يقف هذا القطار على رصيف

المحطة.

تعاود الفتاة النظرات لطريق قدوم القطار لعله يأتي ولكن بلا فائدة، فتدير نظرها حتى يثبت على ذلك المصباح المتدلي من حائط المقهى لعلها تجد الدفء لجسدها المتراقص من لفحات الصقيع، فتصفعها البرودة ليحتضنها الصقيع، فتبلع همها، فيبتلعها الخوف، لتحتويها قطرات المياه المتساقطة من سقف المقهى الخشبي يتيم الجدران، ليزيد من مرارة الانتظار ولهيب الحسرة الكامنة في ليل الضنَى من عمر الزمن البخيل في ليلة شتوية باردة.

تدير فتاة القطار النظرات يمينا ويسارا لتجد على قرب البصر عامل المقهى يختلس النظرات لجسم مبتل من مياه الأمطار التي توقفت منذ لحظات ليس

بالبعيدة، ليتحسس بنظراته عُري الفتاة بنظرة رجل متعطش لمتعة جسدية زائلة؛ فيرتعش جسم الفتاة من نظرة الذئب التي لا ترحم وحدة الفتاة وغربتها وليلها الكئيب، ولكن عامل المقهى راح يتفحصها بنظرات ثابتة قاطعا كل المسافات من جسدها؛ من قمتها إلى أخمص قدمها، وكأنه يكتشف كنزا مدفونا داخل جسد هزيل أعياه الصقيع والانتظار وليل موحش.

فأدارت الفتاة الوجه وراحت تمشط محطة القطار بعينيها علّها تجد منقذا من مصيرها المحتوم، فلم تجد غير عسكري الحراسة المستغرق في أمراضه والنائم في أحلامه، وكذلك وجدت الفئران التي تظهر وتغيب باحثة عن بواقي الطعام وأصوات

نباح الكلاب الآتي من مكان بعيد في عتمة الليل الساكن، فظلت الفتاة تراقب فؤادها الذي يرقص رقصة الضَّياع، وتركت عينيها ترسمان رسمة الفناء على جبين القدر، وكلما تلاقت عيناها بنظرات رجل المقهى تجد سهامًا متوجهةً إليها ونظرات ذئب لا يرحم.

وبخطى متثاقلة يتجه عامل المقهى إليها حتى ضمَّها بين يديه، وراح يهمهم بكلمات تكاد لا تخرج من حنجرته محاولا أن يقبّلها عُنوة، والفتاة تقاوم ولكن كيف لجسدها الضعيف مقاومة وحش كاسر طالب متعة وقتية، وكيف لا وهو مَن أراد أن يثبت لنفسه رجولته وقوته على تلك الفتاة الضعيفة المسكينة والتي ألقت بها الظروف على تلك المحطة

وحيدة بلا رفيق، فهذا العامل هو الأسد الوحيد في تلك المحطة المتهالكة الواهنة، وهذا المكان المتطرف الذي انزوى عن العالم في تلك الليلة المظلمة يزيد من إصرار هذا العامل في رغبته المتوحشة تجاه الفتاة، فما زال يبحث عن المتعة الزائلة التي لا تدوم سوى لحظات قليلة وبعده يتدفق نزيف المشاعر ويبعث صوتُ الندم همومَ الذات.

فتزداد الفتاة مقاومة ويزداد عامل المقهى إصرارًا على ما انتوى، فهو ما زال ممسكا بتلك الفتاة كالأسد الممسك بالفريسة زارعا أنياب الرغبة المسمومة في جسد هزيل ليروي عطشه المحرّم بقبلات من قُبل الشيطان، والفتاة تستغيث ولا مغيث ولا مهرب من هذا الوحش الآدمي فتبكي تارة، وتارة أخرى

تستحلفه بالله أن يرحمها ويتركها لضعفها وقلة حيلتها، وهو لا يكترث لدموعها وتوسلاتها بصوت مرتعش أقرب إلى النحيب، فما إن كادت أن تستسلم لمصيرها المحتوم بعد أن خارت كلُّ قواها وما إن كادت أن تترك نهر الكرامة المجروح يُغرق شتات النفس المهزومة بين أيدي وحش لا يرحم حتى بعثت لها العناية الإلهية الخلاص والغيث؛ فيتغير الحال ويسمعان سويا صوت صفير القطار ويسطع ضوؤه لينير ظلمات الليل البهيم وعتمة النفوس المريضة؛ فتنتاب عامل المقهى قشعريرةٌ ويرتبك وتتغير الأحوال في لحظة فارقة من لحظات الزمن الصعب، ويترك فريسته ويستيقظ عسكري المحطة على ضوء القطار وصوت صفيره، وتنتصر العناية الإلهية للفتاة فينحني عامل المقهى في ذلة

وانكسار ويترك الفتاة ويمشي مسرعا بعيدا عن الفتاة ويتوارى عن نظرها.

تعتدل الفتاة محاولة أن تلملم عذريتها التي كادت أن تفقدها وتجمع بقايا أنوثتها وتمسح دموعها وبقايا هزيمة لم تكتمل، وترتدي ثوب الصفاء وتُنير أنوار القطار الأمل في نفسها من جديد، وتحمد خالقها وتركب القطار حالمة بالعودة إلى ديارها ودفء المشاعر فتسقط دمعة الفرح الحزين من عيونها لتسكن فؤادها ملامح الذكرى للبرد، للأمطار، للرياح، للصقيع، للخوف، لعامل المقهى، لقدرة الله، للقطار.

(تمت)

رسالتي الأخيرة:

عزيزتي / ن

حاولت كثيرا أن أمنع نفسي عن الكتابة ولكن قلمي أبى ذلك، فتركت له العنان حتى يسطر إليك تلك الرسالة، ومنذ البداية أريد أن أذكرك أنني ومنذ كنت صغيرًا يتعلّم العشق وحبَّ الخير والجمال قررتُ أن أحبك أنتِ دون غيرك بالرغم أنني كنت لم أعرفك بعدُ، أحببتك أو هكذا شعرت في سنواتي الأولى أنني أهواك فكنت أنتِ بدايتي مع الحب.

فأنت أو تجربة صادقة وأول شعور ينتابني للعشق، وبدأ شعوري تجاهك يكبر معي، ومرت الأيام والسنون إلى أن وجدتك في منحنى من منحنيات حياتي فعرفتك بمجرد رؤيتك.

فكم حلمت بك في ليالي الشوق الغابرة!! وكم انتشيت من عبيرك؛ رائحة الورود!! وكم من مرة أبحرت في عينيك!! وكم سكرت من لحظك حتى الثمالة!!

ولتعلمي أن مشاعري التي صاحبتني منذ أن كنت صغيرًا إلى أن رأيتك لأول مرة عاودتني في نفس اللحظة التي رأيتك فيها، وتوالت بعد ذلك السنين وقربتنا الأيام سويا وقصصت لك كل ما كان ينتابني من مشاعر كلما ألقاك على الطريق

الطويل المؤدي إلى منزلك، سواء في ذهابك أو في إيابك، وكنت دائما تنظرين إليَّ نظرة تجلعني أبلع كلماتي من جرّاء نظراتك الثابتة التي تكشف عن عدم ثقتك في كل مشاعري وقصصي التي حلمت بها من الصغر فكنت دوما أُزيغ بصري وأجول به يمينا ويسارا متلافيا بذلك نظراتك الثابتة.

عزيزتي/ ..

هل تذكرين عندما جئت إليك طالبا الوقوف بجواري نواجه سويا أيامنا البخيلة التي طالما واجهتها وأنا أعزل من سلاح المال لا أملك غير حبك والصبر الذي ملني في تلك الأيام؟

هل تذكرين؟ فأنا ما زلت أذكر ردك ببرودة مشاعرك التي كانت دوما تذكرني بأيام الشتاء

الباردة ولياليه، والتي طالما سهرتها وحيدا أفكر في أحوالك المتقلبة وعباراتك المرتعشة التي تنم عن شخصيتك المترددة والضعيفة في اتخاذ القرار. كان ردك بمثابة خنجر مسموم زرع بقلبي ليشل تفكيري، من وقتها وإلى الآن، هذا الرد جاء متناسقا مع ملامح وجهك التي لها القدرة أن تُخبئ ما بداخلك سواء بفرح مفتعل أو حزن مفتعل، كان ردك الذي ما زال يتردد داخل أرجائي إلى الآن..

هل تذكرين عندما قلت: "أنا باقية في انتظارك، فعندما تنتصر على الأيام سوف تلقاني، وإن كانت الهزيمة حليفتك فانسني وإلى الأبد"، كان هذا هو ردك المحفور في مسامعي إلى تاريخ كتابة تلك الرسالة، وبعدها تركتِني أصارع الأيام تهزمني

مرة وأهزمها مرة وأنا ناسٍ قسوتك متذكر فقط أني أحبك، وكلما أنتوي الاستسلام أتذكر حلم الطفولة وأول لقاء لنا فأزداد قوةً، وظللت متأرجحا ما بين الهزيمة والنصر إلى أن كانت معاهدة الصلح فيما بيني وبين الأيام، وعدت إليك مسرعا لنتمتع سويا بالسلام والأمان بدون معارك طاحنة مع الأيام متجنبا الحسرة والهزيمة متكبّدا بذلك كل المعاناة وأنا وحيد بعيدا عنك.

هل تذكرين يوم عودتي إليك عزيزتي بعد طول غياب عندما كنت تبدين وكأنك حورية آتية من الجنة لساعات معدودة وعائدة مرة أخرى إلى الجنة هل تذكرين؟

هل تذكرين فستانك الأبيض المصنوع من لون

السحاب؟ هل تذكرين شفتيك الممزوجتين بلون الحمرة وكأنهما الشمس وقت غروبها؟ هل تذكرين ابتسامتك التي أظهرت اللؤلؤ المرصوص داخل الحقيقة التي تنطق دائما بالعدل والحق أو كما كنت أزعم وأدّعي أنا ذلك في تلك الأيام؟

هل تذكرين المكان الذي جمعنا منذ الطفولة وحلمي الذي كبر معي وعرفتك لأول مرة في زمن الصبا والشّباب؟

في هذا اليوم كانت السماء تبتسم لنا أو هكذا ظننت، كان كل شيء جميلا وجذابا ومبتسما، وكنت أنتِ الملاك الآتي من قبل الله أو هكذا تخيلت!!

هل تذكرين كيف دار الحديث بيننا في تلك الأثناء؟ لقد بدأ بيننا الحوار بكلماتك الخائفة المرتجفة

التي تنم عن عدم الصدق، فكانت أول عبارة نطق بها لسانك وأنا أقصّ عليك ما تحمّلته من أجل العودة إليك بدون هزيمة!!

هل تذكرين عباراتي عندما ابتسمت وقلت لك: معذرة حبيبتي؛ فلم أستطع أن أنتصر على أيامي ولم تستطع الأيام هزيمتي، وعدت إليك أكثر حبا وأكثر اشتياقا، فقد زادتني الأيام إصرارا عليك؟

هل تذكرين ردك القاتل وأول جملة نطق بها لسانك؟ كانت كلماتك بمثابة خنجر مسموم زُرع في خاصرة حبي وحنيني وأشواقي إليك، فقد قلتِ ببرودة مشاعرك: "لقد عدتَ متأخرا"، فحاولت مستفسرا عن معنى تلك الكلمات فلم أجد منك ردًا غير أنك تركت عينيك تنهمران بالبكاء لتغرق

أسئلتي وتَئِدَ أحلامي وتقتل كل استفساراتي، ثم أكملتِ قائلة بعد أن أقمتِ مأتم الكلمات بعبارتك غير الصادقة في بعضها والتي ظلت طوال حديثنا سويا تنهش قلبي وعمري بلا رحمة فقد قلتِ: "إن الحب لا يسمن ولا يغني من جوع، وإن المال هو الحب الحقيقي، وإن الكره والبغضاء سيعمّان حياتنا بغير المال"، وتوالت كلماتك تنصبّ على مسامعي وأنا متأمل وجهك؛ فسقطت من عيني دمعةٌ رفض الجفن إجهاضها فسقطت رغما عني من عيني.

وبعدها كان الوداع بيننا، عندما قلت لك بأنه في يوما ما سوف تندمين، وسوف تتحول حياتك إلى جحيم بسبب حبك للمال وليكن حبي إليك لعنة ترافقك طوال حياتك، وأنك ستبغضين المال يوما

بعد أن تتشبعي منه وتتمني لحظة حب صادقة تملأ حياتك وأنك يوما ما ستتمنين أن يرجع الزمن للوراء حتى تلك اللحظة التي نحن فيها الآن.

ومرت الأيام تلو الأخرى وتحقق كلُّ ما حدثتك به، وأصبحت أخبارك تتناقلها الألسن بالرغم أنني أحاول جاهدا أن أسدّ أذني حتى لا أسمع عنك شيئا، ولكن تلك الأخبار تتخلل سمعي فأسمعها رغما عني بالرغم أنني أعرفها قبل أن أسمعها، وكذلك أعرف ما سوف يحدث مستقبلا لكِ، وذلك؛ لأني حلمتُ بذلك من اليوم الذي افترقنا فيه أو بمعنى أدق عندما بعتِ حبي لك بأبخس الأثمان!!

عزيزتي،

فلتعلمي أيضا أنني قد انتصرت على الأيام بدونك ووجدت مَن عوّضتني عنك، وأصبحت اليوم أمتلك الحب والمال والسلام، فقد حلمت بذلك وتحقق الحلم فأنت تعرفين جيدا أن حلمي يتحقق دائما.

على غير عادتها.

جاءتني في تلك الليلة على غير عادتها وأنا ما زلت أحاول جاهدا أن أغمض عينيَّ حتى أراها في أحلامي كما اعتدت على ذلك طيلة الليالي السابقة، ولكنها فاجأتني بقدومها، وكان وجهها في تلك الليلة يزداد وجوما وشحوبا.

جاءتني وعيناها تزدادان سوادًا والهالات التي تلف عينيها تزداد اسمرارا، وثوبها الأبيض القديم الواسع الفضفاض ازداد هو الآخر اتساعا وتمزيقا.

جاءت إليَّ بقططها الكثيرة وقد ازدادت كثرة على كثرتها، رأيتها وكل شيء تحول إلى أجسام هلامية

غير محددة المعالم من حولي، وقد انقسمت في ليلتي تلك كل الأشياء إلى اثنين فازددت رهبة وخوفا وعرقا.

جاءتني وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة كعادتها؛ فاهتزت أنفاسي وانشطرت نظراتي محاولا في استماتة أن أستوقفها حتى لا ترحل وتتركني شريدا بين أفكاري، وحتى أستفسر عن ظهورها في أحلامي، وفي ليلتي تلك زارتني في يقظتي.

وبعد طول رجاء سألتها مستفسرا وهي واقفة في شموخ الأمراء رافضة أن تجيب عن أسئلتي الكثيرة وأن تضع لي تفسيرا لزيارتها المتكررة في أحلامي كل مساء، وهي تنظر إليَّ بعتاب رهيب بنظرات ثابتة دون أن تنطق بكلمة واحدة والصمت حولي

يبتلع الكلمات المرتجفة، وعندما أعاود السؤال أراها تأمر قططها الكثيرة أن تغرس مخالبها الحادة في جسدي الهزيل، وأنا بهذه الحال البائسة أجدها تأمر قططها أن تتركني وأن يذهبوا بعيدا عني وإذا بالقطط المتعملقة تترك جسدي متوارية خلف ثوبها المتهالك الأبيض الفضفاض.

فأعاود أسئلتي بحذر شديد خوفا منها ومن قططها المتعلقة حتى لا تعاود زرع مخالبها في جسدي مرة أخرى، ولكنها بعد صمت قاتل أجابت على سؤال واحد من أسئلتي الكثيرة، وقالت بصوت مرتفع يعلوه الحسرة والأسى والحزن: "أنت سألتني عن نفسي، فأنا هموم البشرية، وتلك القطط الكثيرة همومي"، ثم استطردت في حديثها قائلة

بأنها قد اختارتني أنا دون غيري على أن أحاول قدر استطاعتي أن أصلح عيوب البشر وبما فيهم أنا.

وزادت في حديثها قائلة: فقد ازدادت في الدنيا الحروب وعمت الكروب وأصبح العالم غابة لا يحكمه غير قانون الغاب؛ فابدأ بنفسك أولا محررا إياها من المطامع وشهوات الدنيا والعيوب، ثم بالأقرب ثم بالعالم من حولك إلى أن يعود البشر إلى بشريتهم وإنسانيتهم.

وعند سماعي كلامها هذا أشفقت على نفسي من جسامة هذا الأمر فقلت لها في استعطاف وانكسار:

-لم ولن أستطيع فعل ذلك.

فنظرت إليَّ بعينيها وقد اشتاطت غضبا وغيظا وقالت بصرامة: -فقد اخترت أنت مصيرك وليس

أنا، فطالما استوقفتني وسألتني عن ذاتي، فإما أن تنفذ ما طلبت منك وإلا سوف أترك قططي تتولى أمرك وتمزق جسدك بمخالبها وتأكل أعضاءك بأسنانها وسوف أعطيك فرصة كي تفكر في الأمر وسوف أعود إليك غدا لأسمع ردك النهائي.

وتركتني سابحا في أفكاري خائفا من مصيري المحتوم، وظللت صريعا ما بين أفكاري وخوفي ومصيري إن رفضتُ طلبها، وبعد عناء التفكير جاءت برأسي فكرة، وعند حلول الصباح ارتديت ملابسي وتوجهت باكرا إلى القضاء ورويت ما حدث للقاضي المسؤول عن العالم، وطلبت منه أن يعدم هموم البشرية وقططها الكثيرة المتعملقة التي تتبعها.

ولكن القاضي أمر بوضعي في مصحة عقلية بدلا من إعدام هموم البشرية وإنقاذ الكون، واتهمني بالجنون، وعندما جاء المساء واشتد سواد الليل وأنا جالس في غرفتي الجديدة وإذ بها تأتي إليّ في ميعادها ومعها قططها الكثيرة وقد ازدادت كثرة على كثرتها، وكان وجه هموم البشرية قد ازداد سوادًا، والهالات التي تدور حول عينيها قد ازدادت سوادًا، ووجهها قد اسودّ وذهب عنه بياضه، وكذلك اسودّ ثوبها الأبيض الفضفاض وقد ازداد تمزيقا، ووقفت كعادتها في شموخ سائلة:

-هل وافقتَ على طلبي أم لا؟

وقبل أن تكمل أسئلتها استوقفتها عن الحديث وقد تملّكني رعب شديد وخوف أشد قبل أن

أساها:

-كيف علمتِ بالله عليك بمكاني الجديد؟

فأجابت بسخرية لاذعة وقالت:

-أنا في كل الأماكن وأعيش في كل الأزمنة وباقية في كل العصور، فأنا باقية مع بقاء البشرية.

ثم قالت بكل حزم وشدة:

-هل وافقت على طلبي أم لا؟

فصرخت بصوت عال قائلا:

-لا أستطيع إجابة طلبك فهو شيء مستحيل، وليس في استطاعتي إصلاح عيوب النفس البشرية.

فغضبت أكثر وأمرت قططها أن تمزق جسدي بمخالبها، كما أمرتها كذلك بأكل أعضائي بأسنانها

الحادة مرددةً:

-لقد أهلكتَ نفسك بكثرة السؤال وكثرة التفكير في أحوال البشر.

ولم تتركني هي وقططها إلا وأنا جثة هامدة، وفي الصباح الباكر يدخل الأطباء غرفتي ليجدوني قد فارقت الحياة؛ فيحملوني لتشريح ما تبقّى من جسدي ليتم الإعلان بعد التشريح أن هناك ظاهرة غريبة تجتاح العالم، وقد أفادت التقارير النهائية أن جميع مجانين العالم يموتون بطريقة واحدة، وما زال العلماء يبحثون عن تفسير عن تلك الظاهرة الغريبة لمعرفة الأسباب الحقيقة لتلك الظاهرة.

تمت

الغائب

امرأة متهالكة بلغت من الكبر عِتِيًّا، تكالبت عليها الأيام حتى يظن من يراها أن الدنيا رسمت عليها الأحزان بعناية فائقة وريشة فنان بارع جسّد على ووجها كلّ معاني الألم والحزن، وكأن الليالي وضعت علامة استفهام على جسدها الواهن المتهالك.

امرأة متهالكة من حجرةٍ عشّش فيها الظلام الدامس، وزادها كآبةً خيوط العنكبوت المتناثرة في كافة الأرجاء في بيت متواضع تراكمت عليه السنون وكأنها غابات من الهم وجبال من الغم خيّم

عليها الشوك وبات في أعلاها البوم من شارع قديم زادته البيوت الواهنة وَهْنًا وكآبة في حي متواضع.

أم عنتر، هي تلك المرأة، فقدت من سنوات ابنها وعائلها الوحيد، منذ سنوات لا يعلم عددها إلا الله وهي التي تحسب الأيام والسنين العجاف من عمرها، أم عنتر ما زالت باقية حبيسة الأحزان، وألم الفراق، تبكي وحيدها وتنتظره مع كل إشراقة صباح وهو عائد إليها ومتمّنية أن يتخلل ضياء وجهه عتمة الأيام الغابرة والسنين العطاش ليوم اللقاء بابنها عنتر، ولكن هيهات لهذا اللقاء المرتقب، فهذا اللقاء المرتقب تعدّى العشرين عاما ولم يأتِ هذا اليوم المنتظر.

فتلك العجوز ما زالت تتذكر اليوم عندما ودّعها

صغيرها للحاق بكتيبته في الجيش لكونه متطوعا لحماية الوطن واسترداد الكرامة وأنوار الأمل للحلم المتمايل على ضفاف الشرف المسلوب بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وقد كان أمر رجوعه إلى كتيبته بتاريخ ١/ ١٠/ ١٩٧٣ .

وظلت الأم تدعو لابنها بتثبيت قلبه وتدعو له ولكل أبناء الوطن القابعين على الجبهة بالانتصار على الأعداء.

ومن يومها وأم عنتر لم تر عنتر مرة أخرى حتى نسيه جيرانه وتناساه أهله وظلت أمه تنتظره حتى يعود إليها مرة أخرى فقد انتهت الحرب وتم الانتصار على الأعداء ولم يعد عنتر ولم يوجد اسمه بين الشهداء أو الأسرى، ولكن قيد اسمه في

المفقودين هو والكثير غيره في حرب الكرامة.

ومن يومها والأم تتعذب فهي تتمنّى أن تعرف أن كان من الشهداء حتى تقرأ على روحه الفاتحة، أو هو أسير فتدعو الله أن يفك أسره فهي تتمنّى أن تعرف حقيقة أمر وحيدها، وبالرغم من ذلك كانت على يقين أن ابنها سوف يعود يوما ما، وظلت تنتظره طيلة سنوات العمر.

فظلت أم عنتر تسترجع ذكرياتها مع ابنها والتي جعلتها ما زالت باقية على قيد الحياة عاتبة على هذا الزمان الذي فرق بينها وبين ابنها في ساعة بخيلة من أيام الزمن الصعب بلا أمل بالرجوع.

وفي يوم تستيقظ أم عنتر كعادتها مع بداية إشراقة يوم جديد من شباك حجرتها الذي يطل

على الشارع القديم وعلى تلك الحارة التي حفظت كل جدرانها وفي الساعات الأولى والحارة تستيقظ من غفوة الليل البهيم لإشراقة يوم جديد يظهر رجل قد بلغ الأربعين أو تعداها بسنوات قليلة، رسمت السنوات على وجهه أياما غابرة قد حملت معنى الألم والحرمان، وإذ بهذا الرجل مبتسما فرحا ضاحكا يردد لكل من يقابله في تلك الحارة:

-أنا عنتر لقد عدتُ من العدم.

ليرى وجهه قد تغير وأحواله تبدلت، ولكنه يتذكر العمر الدفين بين جنبات عمره المنصرم.

-نعم أنا عنتر لقد جئت إليكم من قلب الخوف وقلب العدم، مُدّوا إليّ أيديكم كي أصافحها فلكم حلمت بيوم اللقيا ويوم العودة إليكم طيلة سنوات

عمري الماضية.

وإذ بصباح الحارة يتحول إلى حفل رائع لا مثيل له، ويهرول أهل الحارة إلى منزل أم عنتر ويطرقون الباب وينادون ويهتفون:

-يا أم عنتر، لقد عاد عنتر، لقد جاء وحيدك، لقد صدق إحساسك فما زال ابنك على قيد الحياة.

ولكن أم عنتر لا تحرك ساكنا وهي تنظر من غرفتها، يزداد الطرق على الباب مرارا وتكرارا وأم عنتر لا تفتح لهم الباب؛ فيقومون بكسر بابها المتهالك القديم فيسرع عنتر ليقبّل يد أمه التي حلم بلقياها سنوات العمر الفائتة ليجد أن أمه قد فارقت الحياة في هذا الصباح وهي على حالتها ناظرة إلى ذلك الشارع وضوء الصباح، فلم يصدق عنتر

وأهل الحارة أن أمه قد فارقت الحياة بمجرد دخول عنتر إلى الحارة والشارع، فماتت فرحا بعودته أم أنها فارقت الحياة وهي تتمنّى الرجوع والعودة لابنها الذي ظلت تنتظره طوال عمرها غير عالمة بعودته؟

فتموت الأم ويعود الابن ليجلس عنتر وحيدا داخل حجرة متهالكة عشّش فيها الظلام وزادتها كآبة خيوط العنكبوت المتناثرة في كافة الأرجاء، من بيت متواضع تراكمت عليه السنون وكأنها غابات من الهم وجبال خيّم عليها الشوك وبات في أعلاها البوم من شارع قديم زادته البيوت الواهنة كبرا وكآبة.

تمت

نظرات

يقترب الوقت من الساعة العاشرة صباحا وأنا أجوب تلك البلدة التي تقترب من النيل وقد أتعبني التجوال فقررت أن أستريح قليلا في هذا المكان الرائع على ضفة النيل؛ إنها كافتيريا تذكرني بأيام مصر المملوكية لما نقش عليها من زخارف ورسومات ساحرة، وكأن هذا المكان والنهر الذي يجري بجواره سيمفونية موسيقية رائعة أو قصيدة شعر غزلية.

دخلت تلك الكافتيريا وجلست على طاولة ونظرت حولي أستكشف المكان وإذ بي أجد قطعة

موسيقية أروع وشعرا أجمل، إنها معجزة من معجزات الرحمن، فياللعجب!! فتاة عشرينية، شعرها مسترسل على الكتفين، ثغرها باسم وجهها وضّاء، عودها ممشوق القوام وعيناها فيهما كل معاني السحر والجمال وكأنهما عينا ماء يرويان مَن ينظر إليهما حتى الثمالة، وإذ بعامل الكافتيريا يسألني ماذا أريد أن أحتسي فقلت له دون اهتمام: قهوة، وأنا ما زلت ناظرا إلى تلك الحورية الآتية من قبل الله وعائده مرة أخرى إلى الجنة.

وإذ بالفتاة تعتدل في جلستها وتنظرني بلحاظ ثاقب ونظرات ثابتة، وكأن الأرض قد خلت من الكائنات وجميع المخلوقات ما عداي أنا وهي.

كما أن عينيها قد أبت أن تنظر لغيري أو تتحرك

يمينا أو يسارا فأهرب بناظري قليلا وأرتشف القهوة وأعاودها بنظراتي إليها فأجدها أطلقت جنود عينيها لكي تسجنني داخل حدود النظرات.

أتخلص من سجني للحظة يتيمة وأرتشف القهوة فتقوم هي الأخرى وترتشف مشروبها وكأنها تشرب في نخب النظرات.

تشرب بطريقة ثابتة وتنظر بطريقة ثابتة، وكأن الله قد حدد نظام حياتها كنظام الكون، أعود لنفسي وأسال نفسي يبدو أنها تعرفني مسبقا ولكن كيف ذلك وأنا أول مرة أراها وأول مرة آتي إلى هذا المكان وظللت هكذا أسال نفسي وأجيبها إلى أن قررت أن أدنو منها قليلا وأسالها عما يجول بخاطري، فتأهبت للوقوف وإذ برجل قد بلغ الستين أو أكثر

ينادي عليها:

-جميلة، جميلة، لقد تأخرت عليك بنيتي.

ودون أن تنظر إليه ترد بقولها:

-لا عليك يا أبي فهذا المكان هادئ.

وهي ما زالت تنظر إليّ بنظرات ثابتة وكأنها توجه تلك الكلمات لي.

ولكن فجأة حدث ما أفزعني وجعلني في حالة من الذهول؛ فبينما هي واقفة إذ بها تحطم بعض الأكواب الزجاجية الموضوعة على الطاولة ويقول لها والدها:

-لا تحزني يا بنيتي.

وأخذ بيدها ليعرفها الطريق ثم قامت بارتداء

نظارة سوداء، وشد والدها على يدها وعبر بها عبر طرقات الكافتيريا إلى أن خرج وهو يقودها في المسير، نعم لقد كان يقودها في المسير، فقد كانت حسناء بلا نظر وعيناها دونهما بصر.

(تمت)

هزيمة الانتصار

يسيران على نفس الطريق الذي شاهد طفولتهما منذ أن كانا أجمل طفلين في القرية، يسيران وحولهما الحقول الزراعية وأشجار النخيل والقمر المطل عليهما بوجه حزين، وضوؤه يتخلل سعف النخيل.

يسيران وخطواتهما متثاقلة تأبى السير في هذا الطريق الطويل المؤدي إلى نهر النيل. يسيران والحزن ثابت في القلوب.

يتجول نظر عثمان يمينا ويسارا ويعود يثبت نظراته على وجه فاطمة ويطيل النظر إلى وجها الملائكي ويتذكر أيام الطفولة وأيام الصبا بقلب

منكسر، يتذكر عندما كانا طفلين يتسابقان إلى منزلهما ليحضنا أمهما فتضحك الأم وتدعو لهما بدوام الحب وتدعو من أجلهما كي لا يفرقهما الله أبدا، فتعود ملامح الذكرى تداعب وجدان الأخوين ليوم وفاة أمهما وآخر كلمة نطق بها لسانها، ثم فارقت بعدها الحياة عندما أوصته على أخته فاطمة ليكون لها نعم المعين والناصح الأمين والصديق الوفي؛ لأنها أخته الوحيدة، تذكر كل أيام العمر البائد بينه وبين أخته الوحيدة وهما يسيران على الطريق الحزين فتملأ مساحة الذاكرة نشوة الإحساس البعيد، فتسقط من عين عثمان دمعة رفض الجفن إجهاضها فيحاول متماسكا أن يداري قطرات الدموع وكآبة المنظر وسوء الحال، فيُعاود الخطى التي تثقلها الهموم. فيتذكر فقط بقايا الهزيمة

ليحضنه الهم ويعود متجولا بنظره مرة أخرى يمينا ويسارا متفاديا وجه فاطمة.

وتتواصل هي الأخرى مع مسافات الخوف والإبحار في ليل الضنى ناظرة إلى أحضان الطبيعة التي شاخت وصوت الندم يملأ أحاديث الجوى داخلها لتسترسل الدموع على وجنتيها بحورًا ومياهًا مالحة.

ليعود بها الحنين لمدرس الفلسفة الذي سكن قريتهم وأحبّته حبا صادقا، حب الأب والأخ والصديق والحبيب وأصبح كل حياتها بلا منازع، وأحبها هو الآخر ولكن حبه لها قد أحيا بداخلها الأنوثة النائمة بكلماته الحلوة وحديثه العذب وكيف لا وهي بنت الثامنة عشرة من العمر.

تتذكر وتتذكر ويعتصرها الألم، وتأكلها أنياب الخوف وتتذكر مصيرها المحتوم وهي ناظرة إلى بطنها المنتفخ من أثر العشق الممنوع والحمل المحرم ومن أثر الخطيئة.

تواصل الخطى التي تثقلها الهموم فتبلع خوفها وتواصل نزيف المشاعر المتدفق ليعزف سيمفونية الخوف على أوتار الندم. لتسمع داخلها صوت الحنين ونسيم التضحية فيفترس جسدها لوعة الحسرة وصوت الفضيحة والخطيئة.

يعاود عثمان النظر إلى أخته والطريق يطول تحت قدميهما وكأنهما يغوصان في بحر من الوحل وتبعد المسافة أميالا، وكأنه طريق لا نهاية له. فيعاود عثمان همس الذكريات ويسكن خاطره فتكسر أجنحة

الكبرياء والكرامة، فيرن في أذنه حديث والده:

-يابني أختك خاطئة وقد ارتكبت كبيرة من الكبائر، ويجب قتلها هي ومن فعل بها تلك الفعلة.

فينتابه حزن يعتصر خلجات نفسه فيحاول أن يتمالك نفسه عندما يتذكر حديثه مع فاطمة لكي تعترف له بمن فعل بها تلك الفعلة ولكنها تصمت لا تجيب وتدرك مصيرها المحتوم، فتضحي بنفسها وتجعلها رهن امره فيحاول جاهدا حثها على الاعتراف، ولكنها تدمن الصبر وتحترفه فيتركها أخوها متوجها إلى والده فيجده غارقا في دموعه فيتوسل إليه أن يمهلها بعض الوقت كي تراجع نفسها أو تعترف بمن فعل بها تلك الفعلة فيتذكر كلام والده.

وبأن كلام الناس لا يرحم وبالفضيحة التي لحقت بهم، وببطنها المنتفخة أمامها وأنه لا فائدة فمصيرها المحتوم هو الموت تخلصنا من الفضيحة وكلام الناس.

فيمهله والده إلى الليل؛ لأنه ستر وحافظ للأسرار، وعندما جاء الليل وأسدل ستائر الظلمة والهدوء وجد نفسه يسير معها في هذا الطريق فيفيق عثمان من أفكاره ليجد نفسه يسير معها في هذا الطريق فينظر عثمان إليها نظرة إشفاق هزت كيانه، ويُخرج سكينته من سترته ويرفعها لأعلى قاصدا بها رأس فاطمة، فتنظر في عينيه نظرة حانية بدون كلمة واحدة من شفتيها في لحظة النزيف المتلاحق للمشاعر فيمتلكه خوف يفترش قلبه الحزين

فيحاول جاهدا أن يتماسك أمامها، فترقص عينا فاطمة رقصة الفناء المأسورة في قبضة الألم، فيغمض عثمان عينيه برماد الحيرة ويسمع همس الوفاء داخله فيرمي السكينة من يده ثم يحتضن أخته ويقبلها قبلة الحنين وهي تبكي بين يديه، فيتمالك نفسه ثم يُلقي بها في مياه النهر متمنيا أن يطهرها النهر من الخطيئة، ويستدير بظهره سائرا في دروب الحياة حاملا بقايا هزيمة متمنيا لأخته أن تنقذها العناية الإلهية من الغرق المحتوم، أو أن يحتويها النيل بين أحضانه حتى تذوب الخطيئة ذوبان الملح في الماء وحتى ينسي أن دماءها كادت أن تسفك على يديه.

يعود عثمان من حيث أتى على نفس الطريق الشاهد على الطفولة الجميلة والذكريات الخالدة،

يعود والألم يعتصر قلبه بين ضلوعه، يعود دون أن ينظر خلفه نظرة الوداع الأخيرة على أخته، يعود متذكرا عروس النيل التي طالما ألقاها الفراعنة قديما كقربان لفيضان النيل، يعود مقارنا نفسه بالفراعنة؛ لأنه ألقى بأعز إنسانه على قلبه وهي أخته الوحيدة (فاطمة) مضحيا بها تقرّبا بالعادات والتقاليد، يعود تاركا إياها تقاوم مياه النيل بمفردها في ليل الضنى، يعود عودة المهزوم المنتصر.

(تمت)

المخاض

كانت صرختها مدوية وقاتلة للصمت والهدوء الرهيب الذي خيم على المستشفى ليجعل الجدران تهتز من شدة الصرخة التي كسرت مرور الوقت المتثاقل والساعات البطيئة الماضية في ألم المخاض الموجع.

كانت صرختها متوافقة مع عودها المتراقص من الألم ومتناسق مع رقبتها المتمايلة في جميع الاتجاهات وخطواتها المهزوزة في الطرقة الطويلة ما بين غرفة الانتظار وغرفة الولادة، كانت ملامح وجهها الشاحب متناسقة مع يدها الممسكة بوالدتها ووالدة

زوجها في استماتة كي لا تسقط على الأرض صريعة الآلام التي سكنت جسدها المتمايل وجعلت حركات جسمها غير طبيعية وكأنها بهلوان يقوم بأداء ألعابه على خشبة السيرك.

كان الألم شديدا عليها وأشد منه حركات الطفل الساكن في أحشائها منذ شهور والذي قرر أن يخرج إلى الحياة غير مهتم بما تعانيه أمه من ألم المخاض.

يزداد صراخها فتجزّ على أسنانها وتأكل شفتيها من الألم، ويزداد جسدها تمايلا ورقصا من شدة ما تلاقي من آلام المخاض، تنادي أمها:

-أين الدكتور؟

فتجيب الممرضة ببرود الجليد ودونما اهتمام يذكر:

-معرفش.

وتنصرف فتعاود الأم نداءها على الطبيب مرددة:

-حرام عليكم يا ناس، حد يتصرف، اعملوا حاجة.

وبدون اهتمام تجيب ممرضة أخرى:

-الطبيب على وصول.

فأسأل نفسي: لماذا كل هذا البرود واللامبالاة من هؤلاء الممرضات؟ هل قست قلوبهم إلى تلك الدرجة وتبدلت مشاعرهم لدرجة أنهم لا يشعرون بما يشعر به الآخرون من ألم تقشعر منه الأبدان وتكلّ عن حمله الجبال؟!!

أتذكر قول البعض: إن الممرضات هم ملائكة

الرحمة؛ أي رحمة تلك؟! فحياتهم متشابهة وممزوجة بطعم الألم وأصبح لون الدم ممزوجا بطباعهم من كثرة الآلام التي يشاهدونها. أصبحت حياتهم منظرا مستمرا وصورة لا تتغير مما يشاهدونه في حياتهم اليومية من الألم.

وإذ بصرخة أخرى تدوّى في أرجاء الطرقة والأم تزداد خوفا على خوفها على ابنتها وتنادي:

-أين الطبيب؟

ولم يهتم لتلك الهتافات أحد، ولم يبالِ أيُّ شخص بصراخها فتتلاشى رويدا رويدا تلك الصرخات في أرجاء الطرقة إلى لا شيء.

وإذ بممرضة تقول لصديقتها:

-إن تلك السيدة على وشك الولادة والدكتور لم

يأتِ إلى الآن فهذا الدكتور هو من حوّلها على تلك المستشفى ولم يأتِ إلى الآن!!

فتقول لها زميلتها:

-إنه يعمل في عيادته الخاصة ولن يأتِي إلا بعد أن يقوم بالكشف على مرضى عيادته الخاصة، وما زال لم يأتِ حتى الآن.

فتقول لها زميلتها:

-هل من الممكن أن يقوم أي دكتور آخر بتوليد السيدة بدلا من تركها هكذا؟

فتقول زميلتها:

-لا يستطيع أي دكتور آخر أن يولدها لأن من قام بتحويلها إلى المستشفى هو فقط الدكتور الذي

يباشر الحالة من قبل.

وإذ بالصراخ يزداد من السيدة التي حانت لحظة ولادتها وكذلك صراخ أمها التي أكل الخوف قلبها على ابنتها، وإذ بي أذهب إلى حديث قد دار بيني وبين صديق لي منذ فترة عندما قال لي:

-إن المرأة هي أغرب مخلوق على وجه الأرض.

وعندما سألته عن ذلك قال لي:

-إنها المخلوق الوحيد العاقل الذي يتلذذ بآلامه، فذكرى ليلة الزفاف وما تلاقيه الزوجة في تلك الليلة من فض بكارتها وما تتحمله من ألم لا يقوى عليه أقوى المخلوقات، وبالرغم من ذلك يبارك لها الأهل والأصدقاء في الصباح على تلك الدماء التي أريقت على فراش الزوجية في تلك الليلة، وتظل

تلك الليلة بألمها ذكرى جميلة بين الزوجين.

ثم يعود ويذكرني بلحظة الولادة وما تعانيه الأم في تلك اللحظة ويؤكد لي أن لحظة الولادة تعادل في آلامها لحظة الوفاة وخروج الروح، وبالرغم من ذلك ترى النساء تعاود الولادة مرارا لتستمع بلذة الألم فتعتري شفتيَّ ابتسامة مقارنا بين لحظة خروج الروح ولحظة خروج الطفل فكلاهما خروج وإن اختلفا.

وقبل أن تسكن ابتسامتي على شفتيَّ ينتفض جسدي من صرخة السيدة الحامل التي لم أسمع صرخة في قوتها إلا مرة واحدة في حياتي عندما توفي أحد جيراننا في حادثة وجاء الخبر إلى أمه في اللحظات الأولى للصباح فصرخت صرخة جعلت

الجيران يتواثبون إلى منزلها ليعرفوا سبب الصرخة.

لأجد صوتا بداخلي يردد: إن الموت والحياة متساويان طالما طعم المرارة واحد وطعم اللوعة من شدة الألم متشابه.

أعود زارعا نظري في وجه السيدة لأرى حبيبات العرق على وجنتيها وجبينها تتجمع فتصبح سيلا من الماء المنهمر يتساقط من ذقنها ليغرق ملابسها وصدرها وشعرها يزداد ثورة وهياجا ليلتصق بوجهها المبتلّ بالعرق وبالشعيرات المتطايرة من شعرها الثائر وتعاود هي الأخرى الذهاب والإياب في الطرقة الطويلة ممسكة بوالدتها وأم زوجها مستسلمة للآلام التي سكنت جسدها وكأنها مس شيطاني قد أصابها، وإذ بصرختها تعلو

وتعلو وتنشطر الصرخة إلى صرختين، ثم تصمت صرخات الأم وتبقى صرخة طفلها القادم إلى الحياة.

وإذ بجميع الممرضات تتجهن نحو الطرقة الطويلة ليعلنّ أن السيدة قد وضعت بدون طبيب.

وإذ بالطبيب يأتي بعد الوضع مستغربا لما حدث ومباركا على السلامة شاكرا الله مرددا:

-سبحان الله!! الأم وضعت بدون تدخّل من أحد!!

فتقول جدة الطفل:

-نعم، سوف نسميه عبد الله.

(تمت)